التشكل الفني النهائي للشخوص فيها. فالناقد بهذا الصدد، اما سيلجأ الى التخمين والتكهن الخاصين به، او التقدير الذي يلائم مجموع تراث غسان، الروائي والقصصي والفكري. ورغم ما في الاسلوبين من اقحام وتعسف، فإننا ازاء غسان بالذات، نرى ان مجموع تراثه يعطي تصوراً كاملاً عن معتقداته الفكرية، وتجلياتها الفنية، مما يجعل محاولة تصنيف الروايات غير المكتملة، ضمن السياق العام، لأعماله الروائية، عملاً غير صعب، دون التعسف الذي يصل الى اقحام تصورات خاصة على الجزء الذي كتبه غسان من هذه الاعمال. لذلك سنكتفي بمحاولة تحديد المكان المناسب لهذه الاعمال الثلاثة، ضمن السياق العام، لأنماط البطولة التي رأيناها في اعماله السابقة.

فـ «العاشق» تأتي ضمن السياق الذي صنفنا فيه «عن الرجال والبنادق»، حيث الارتداد الى الماضي، الى التاريخ الفلسطيني في زمن الاحتلال البريطاني، لتشكيل ملامح النضال، من خلال قسمات البطل الذي يأخذ طابعاً ملحمياً، فهو لا اسم له، مرة «قاسم» وأخرى «عبد الكريم» وثالثة «السجين ٣٦٢»، ورابعة «العاشق»... الخ. كان يصارع الاقطاع وينازل البريطانيين. الصفحات المكتوبة من هذه الرواية لا تفصح عن اكثر من كونه تمثيلاً لنضال شعب، اذ لا يهمه ان يعرفه احد، او يعرف أحداً، فهو يختفي ليظهر من جديد، باسم جديد. له غرام بالخيول، يتوحد معه في السراء والضراء، كما انه عاشق للارض، متسمّر بها، الى حد الذوبان والتلاشي، لا يمكن فصله عنها او تمييزه من ترابها... لذلك فالكابتن البريطاني «بلاك» الذي عجز فترة طويلة عن القبض على هذا «العاشق»، يرى ان «الارض ذاتها هي المتواطئة والشريكة، وانك كي تقبض على «عبد الكريم» عليك اولاً ان تلقي القبض على الارض»(٤٦). عندما يرتد غسان الى الماضي، لإعادة الحياة فنياً الى صفحاته النضالية، يكون من الطبيعي ان تنسجم «العاشق» في سياق واحد مع «عن الرجال والبنادق» التي قدمت البطل المقاوم في الماضي، لتأصيل الطريق الذي كان بداية للفعل عند حامد، واصبح طريقاً معبداً مزدحماً بالمقاومين امثال سعد ورفاقه، ومن ورائهم الجماهير التي تمثلها «ام سعد» وطبقتها.

اما «الاعمى والاطرش» فإنها ايضاً، تعطي الصدارة لآراء الكاتب الفكرية، لذلك فهي شخوص تتحرك في اطار افكار الكاتب، مثل شخوص «عائد الى حيفا». ورغم تأخر نشرها (١٩٧٢) بالنسبة لتاريخ نشر «عائد الى حيفا» (١٩٦٩)، الا انها تخدم الخلفية الفكرية ذاتها، ولكن من ناحية اجتماعية. واذا كانت شخوص (عائد...) قد اسقطت كافة الاوهام التي تروج حول الطريق المؤدي الى تحرير الوطن، وحسمت الموقف لصالح الحرب، الذي بشر به «حامد»، وسلكه فعلاً «سعد» ورفاقه، فإن شخوص «الاعمى والاطرش» تسقط كافة الاوهام المتعلقة بالوعي الاجتماعي، اذ ان علمية المرحلة وواقعيتها الثورية، لم تتركا مجالاً لاستمرار التعلق باوهام الفكر الغيبي، لان سقوط هذا الفكر نتيجة طبيعية للمرحلة العلمية والموضوعية، التي تشكل البندقية سمتها الاساسية، لذلك يبقى «الاعمى» و«الاطرش» عاجزين عن الثورة على «الولي عبد العاطي» رمز الأفكار الغيبية ــ الميتافيزيقية، رغم قناعتهما بضرورة اقتلاعه من الاساس بعد ان اكتشفا زيفه، حتى ظهور الفدائي «أبوحمدان» في حياتهما، فيعلقا عليه الأمل في مساعدتهما في هذه المهمة.